ابراهيم عبد العال على منبر الندوة

ابراهيم عبد العال

المتأصّل

الطالب والأستاذ

المربّي

الباحث

المنشىء البنّاء

الواطن

المفكّر

المثقّف الإنساني

اللبناني

منشورات الندوة اللبنانية
بيروت
١٩٦٠

كلمة الندوة

عماد كبير بين أعمدة البيت اللبناني ينهار في ساعة من الغفلة غاشمة، فيثير غيابه الحيرة في العقول والهلع في القلوب والجزع في النفوس. هو أنّ ابراهيم عبدالعال كان طوال ربع قرن في حقل الحياة العامة، للعلم من غارفي مناهله، وللفكر من كبار روّاده، وللفن الإقتصادي عامة والمائي والكهربائي خاصة من ألمع مناراته، وللتوجيه اللبناني الصحيح من أبرز أعلامه. ثمّ هو كان للخلق الرفيع عطر بنفسجه، وللصداقة الحميمة دفأها المحيي، كما كان للمشاريع الكبرى مطلقها الأوّل وللتّعمير في لبنان محرّكه ومخصبه.

والندوة إذ تفقد فيه، فوق كل ذلك، واحداً من أميز محاضريها وعضواً فعّالاً في مجلس أمنائها، ترفع الى روحه الحيّة في قلب مؤسسها والى ذكراه الطيّبة عند الجميع، هذه الباقة المخلصة من الورد وقد حبكها له قدر بعض الأصدقاء ممن طلبنا اليهم أن يشتركوا في تظاهرة الوفاء التي نظّمناها بعد أربعين يوماً انقضت على غياب طلّته.

و أمنيتنا تبقى أن يعيش ابراهيم عبدالعال بمثله وتراثه في روع كلّ لبناني وأن يستهدي بأنواره كلّ مسؤول في لبنان.

إنّ من فقدنا كان كلّه عطاء، فلنكن أمنين لرسالته بالغرف من ينبوع سخائه!

بيروت، تشرين الثاني ١٩٥٩

ميشال أسمر

مؤسس الندوة البنانية

محاضرات ابراهيم عبدالعال في الندوة

LES CONFERENCES D'IBRAHIM ABD-EL-AL
AU CENACLE

المشاريع المائية في لبنان	نوار ١٩٤٨
وسائلنا اللبنانيّة	نيسان ١٩٥٠

Les aménagements hydrauliques dans l'économie libanaise	Juin	1951
Energies libanaises	Janvier	1952
La paysannerie libanaise	Mars	1953
Construire	Février	1956
Essor du Liban	Mars	1957

منهاج حفلة ٩ تشرين الثاني ١٩٥٩

ميشال أسمر
المتأصّل (بالعربيّة)

الأب البان دي جرفانيون
من الطالب الى الأستاذ في معهد الهندسة العالي (بالفرنسيّة)

زكي النقاش
المربّي (بالعربيّة)

جوزيف نجّار
الباحث (بالفرنسيّة)

ريتشار لبنكوت
المنشىء البنّاء (بالإنكليزيّة)

تقي الدين الصلح
المواطن (بالعربيّة)

موريس الجميّل
المفكّر (بالعربيّة)

عمر نامي
المثقّف الإنساني (بالفرنسيّة)

بيار الجميّل
اللبناني (بالفرنسيّة)

صوت ابراهيم عبدالعال (تسجيل)

ابراهيم عبدالعال:

المتأصّل

للأستاذ ميشال آسمر

أهله في حزن وحداد،
أصدقاؤه ومعاونوه وزملاؤه، في الإدارة العامة، في لوعة وأسى، المهندسون: مدنيّون ومائيّون وكهربائيّون، في حرقة لاذعة، طلاّب المقاصد، وطلاّب معهد الهندسة العالي، والأساتذة فيهما، في جزع وأسف،
الروتاريّون في ألم، ومحافل العلم الدوليّة عامة، والفرنسيّة والأميركيّة خاصة، في ارتباك،
مجتمعه القومي، بمسيحييه ومسلميه، بعمّاله ومفكّريه، في ذهول، البنّاؤون في لبنان والمنشؤن المبدعون، في حيرة،
أرض الوطن، بطبقاتها كلّها وما عليها وفيها وتحتها وفوقها، تسأل عنه، مياه لبنان تتعطّش اليه.
فمن تراه حتى يستحوذ الوجوم والتلهّف على هؤلاء جميعاً لدى غيابه؟

لقد كان ذاك الذي، عندما قدّم فخامة الرئيس شهاب تعزيته لأرملته وشقيقه، قال عنه: عزيزنا ابراهيم عبدالعال ثروة لبنانيّة أحدث فقدانها فراغاً في قلوب مواطنيه وعقولهم وفي الأجهزة الإداريّة للدولة.

فمادياً وفكريّاً وأدبيّاً وخلقيّاً بلغ عبدالعال كماله بانضوائه على نفسه يغذّي فيها ثقافته وينمّي ما زرعه الخالق في كيانه، ثمّ انطلق نحو غيره من بني جنسه فتفتح على المحبّة مكملاً ذاته بالتعاون والتفاعل مع مواطنيه.

وأخيراً وجّه جهده ونشاطه نحو العمل الكونيّ فصبّها في قالب الخلق مساهماً، عن طريق تعمير لبنان، بمعزوفة العبادة للذي أبدع كلّ شيء واليه يرجع كل شيء.

قال فقيدنا: «نحن لم نعد في عصور الهدوء والاستقرار والهناءة والوداعة. فمن واجبنا الاستعداد للطوارىء، وإنماء قوّة المقاومة عندنا لمواجهة هذا الزمن القلق والأزمات التي تتوالى بغير انقطاع. من واجبنا أن ننزل من عليائنا الى أرض لبنان، هذه التي نعيش عليها لنتعرّف الى ميّزاتها وخيراتها وإمكاناتها، فالمستقبل قطعة من الحاضر، والنجاح متوقّف على إرادتنا وحدها.»

هذا الهجوم عنده تغلّفه الإبتسامة، هذه الإبتسامة تنتهي في التفكير، جلده العجيب في البحث العلمي، رأيه المعلّل في تقييم النظريّات، تؤدته في الحكم على المواقف الفكريّة، شجاعته أمام كل جديد، منطقه الدقيق، تهكّمه غير اللاذع الجارح، تفهّمه الدقيق لمشكلات الآخرين، كلامه العذب، كل شيء عنده كبير رجولي: قوامه السيّد، جبينه المترامي، تعشّقه للحياة، سموّ رؤياه للعالم، نهجه في الهيمنة على القضايا الجسام، كلّ هذا كان ينبّئك برفعة شمائله وكرم شيمه، بالرجل المتفوّق الممتاز. والى ذلك، نعومة الحرير، وصفاء الطهر، والأنس والأدب واللطافة. عقليّة علميّة وإيمان عميق يدلّ تعايشهما فيه على التوازن والكمال.

هذا التوازن وهذا الكمال إنّما هما توأمان للأصالة.

أصيل صديقنا عبدالعال. أصيلٍ في علمه، أصيل في تفكيره، أصيل في خلقه مما مكّنه أن يكون أصيلاً في عمله وتصرّفه. وجميعنا يعرف أنّه لم يخضع أبداً لأيّ مركّب نقص. أرض لبنان- شطّاً وسهلاً وجبلاً- وسماؤه وماؤه ونباته تغلغلت جميعها في البحّاثة فتأصّل فيها. وإنسان لبنان- فلاّحاً وعاملاً ومديراً وقائداً- التصق به بحكم عنايته بالشّأن اللبناني فعايشه وأحبّه. ثمّ تشبّع من كبار العقول، من أفلاطون وأرسطو الى سينيك وابن رشد وفاليري، فساعده ذلك على التسامي بالعلم المجمّد الى العلم المبدع. وكان مسلماً روحيّاً في معتقده، فربط نشاطه الدنيوي بحيويّة الخلاّق الأوّل، منظّم الكون.

قدّرت الندوة اللبنانيّة كلّ هذا في ابراهيم عبدالعال واعتبرته في طليعة المواطنين البنّائين، فكان لها الشرف وقوفه على منبرها سبع مرّات في عشر سنين. وأحبّ صديقنا حركتها لعنايتها بتعمير البيت اللبناني وتربية المجتمع اللبنانيّ فانخرط عضواً في مجلس أمنائها يرعى نشاطها بمساندة عقله وعطف قلبه. والندوة ترفع، الليلة، لذكراه هذه الباقة من عواطف أخوان له، راجية معهم أن يكون مثل عبدالعال في لبنان حافزاً لكلّ همة، آملة أن يكون تراثه، في ما رسم من مشاريع ومخططات وما نشر من دروس وأبحاث وما ألقى من محاضرات، ودائع في ضمائر اللبنانيين، من حكّام ومحكومين، يعملون على إبرازها وتنفيذها ويبقون أمينين لها ذاكرين لابراهيم عبدالعال أنّ « هذه آثاره تدلّ عليه.» فهو لن يغيب عنّا ان نحن بقينا أوفياء لرسالته التعميريّة الخالدة وواصلنا ما بناه بعقله وقلبه ووطنيّته وإنسانيّته.

ونحن عندما ارتأينا أن نسمعكم، في ختام هذه الحفلة، صوت ابراهيم عبدالعال مسجّلاً، ما قصدنا أن نثير فيكم عاطفة وتأثّراً. إنّما نرمي من خلال ذلك الى تذكيرٍ أنفسنا بنبرته الصميمة ودعوته المخلصة للعمل، فيبقى هذا الصوت حيّاً في أذهاننا، دافقاً، داعياً الى الاضطلاع بالمسؤوليات والواجبات الوطنيّة حتّى يبقى لبنان، على حدّ قوله، « مشرقاً بفضل جهود أبنائه البررة، وحتّى يصبح وطننا جنّة الهلال الخصيب ودرّة لامعة في التعاون الأخوي والمحبّة الأنسانيّة بين دول الشرق الأدنى.»

لقد وقف ابراهيم عبدالعال حياته على المساهمة في إعادة بناء البيت اللبناني، فعسى أن يفعل مثله وتعاليمه فينا فيزدهر لوطننا عصر ذهبي تأخذنا نشوة العزّ إذا قدّر لنا الاشتراك في تحقيقه بالإنتاج الفعّال.
عاش ابراهيم عبدالعال في أذهاننا وقلوبنا، ولنكن لرسالته أمينين، ولذكراه حافظين!

ابراهيم عبدالعال:

المربّي

للدكتور زكي النقّاش

إنّ من الناس من يمرّون في هذه الحياة، مرور الشهاب الثاقب في وسط السماء، فهو لا يكاد يترك وراءه خيطاً من نور، حتّى يلفّه الظلام فيتوارى كأنّه لم يكن.

ومنهم آخرون يندفعون في رحاب المجتمع كالإعصار العاتي،بصخبه وهديره، وبضجيجه وصفيره، كأنّه بذلك يعلن عن نفسه ومآتيه، فإذا به آخر المطاف ينتهي مخلّفاً وراءه الدمار والخراب والهلاك فالموت!

الاّ أن هناك فئة ثالثة تأبى إلاّ أن تتمثّل في وجودها بجداول الماء الهادئة، وقطرات النّدى المحيية، ونسمات الصّبا المنعشة، فهي تروح وتغدو في أعمالها ولا نكاد نحسّ بمرورها اللهمّ الاّ بقدر ما تخلفه بعدها من خصب وإنماء وانتعاش وحياة.
والجميل في أمرها أنّ كل ذلك يحدث دون ما دعاية منها أو إعلان وبغير تبجّح أو إدّعاء!

من هذه الفئة الطيّبة الخيّرة، فقيدنا العظيم الغالي، ابراهيم عبدالعال. لذلك كان ذلك الوجوم الشامل، يعتري الجميع لدى تلقّيهم نعيه المفاجىء، وكانت أيضاً تلكّم الصرخات المعبّرة عن الألم والأسى، تفجّعاً لمصابنا به بتلك السهولة المريبة، وبذلك الحادث البسيط، يودي بحياة من أخصب ما عرف لبنان في تاريخه الحديث، ويطوي صفحة من أصنع الصفحات في تاريخ المآثر والمنجزات بلبنان.

بلى، لقد عملت وخططت، فأثمرت وأنعشت، وبعثت الحياة في جنبات لبنان وأرجائه، بدون أن نسمع منك صوتاً يرتفع، أو إعلاناً ينتشر، وإذا بمماتك تتفجّر الحناجر لتعبّر، بأعلى أصواتها، عن ألمها الشديد لنعيك، ولتعلن عن وجعها الممضّ باختطاف المنون لك، من بيننا، وأنت اشدّ ما تكون حيويّة وصحّة ونشاطاً.

لقد سلخ فقيدنا العزيز ثماني عشرة سنة من حياته الخيّرة يجاهد ويعمل معنا، نحن معلّمين ونظّاراً ومديرين في كليّة المقاصد الإسلاميّة، مربّياً كريماً مخلصاً وأميناً، بل ومهندساً مبدعاً، ينشيء الحياة ويبني فيصبّها في براعم دوحة العروبة السامقة في لبنان، صبّاً، ويسقيها بماء المكرّمات سقياً.

لقد خبرت كلّ ذلك فيه يوم كان يتعهّد فلذات أكبادنا من المقاصديين في صفّ الرياضيات فيغذّي عقولهم ثقافة رياضيّة علميّة، يحفّ بها المنطق السليم في التفكير، والدقّة الصارمة في التعبير، والإخلاص البين في الإنتاج.

لقد كنت كلّ أسبوع من أسابيع الدراسة أحسّ نموّ الأذهان، وقوّة التفكير وحبّ الدأب عند أبنائنا، بفضل ما يقدّمه لهم أساتذتهم من غذاء مقوّ سليم، وعلى رأس الجميع أستاذ الرياضيّات في صفّ الرياضيات ابراهيم عبدالعال. بل كنت ألمس كلّ شهر أن الاستاذ ابراهيم قد رفع مدماكاً جديداً في بناء صرحنا العلمي، حتّى لقد غدت كليّة المقاصد الإسلاميّة تزهو على الكثير- إن لم أقل الجميع- من معاهد لبنان التعليميّة في مدينة النور، ويرجع الفضل في ذلك الى ما اتّصفت به نفس فقيدنا من حبّ التفاني في سبيل العلم الخالص، وترويض العقول على مبادىء خلقية وأصول رياضيّة.

لقد كان المغدور، رحمه الله! مطبوعا على حبّ التضحية، براحته وبالكثير من أوقاته وجهوده من أجل إنشاء جيل من العرب في لبنان، يقدّر أفراده الحقيقة لذاتها ويقومون بالواجب للواجب، ويخلصون لقريبهم، لإنسانيّته.

تصوّروا معي هذا الرائد الوطني، وذلك المجاهد العربي، يضحّي بصحّته الغالية باقتناص السويعات من الصباح الباكر ليحضر فيها الى المدرسة والطير في وكناتها، ليصوغ بمعارفه الغزيرة وبتدقيقاته العلميّة وواسع خبراته في التربية، عقول شبابنا بالرياضيات، وبمثل عليا تتركز في الصدق والإخلاص، والدأب والتفاني، وكان، طيّب الله ثراه! يقوم بذلك كلّه دون أن يفكّر في ما يمكن أو يجب أن يناله عليه من أجرٍ سوى أن يرى هؤلاء الشبّان يزدادون معرفة وينمون فكراً ويقوون منطقاً.

يشهد الله أنّي لم أسمعه يوماً ينبس ببنت شفة، عمّا يختصّ بالتعويض المالي، الذي كانت الجمعيّة المحترمة، جمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، ترغب في تقديمه له، لا على أساس ما تستحقّه جهوده، بل على مبدأ رمزي، إن لم يتناسب مع عظيم علمه وكبير فضله، فإنّما يكون رمزاً للإقرار بالفضل، وعربوناً بعرفان الجميل ليس الاّ...

ولهذا بالذات كان يعود السبب في تمسّك المراجع المسؤولة به، وفي العمل دائماً على استقباله بيننا سراجاً منيراً في معهدنا، حتى لم يبق لديه أيّ متّسع من وقت ليؤدي ما كان يقوم به، فاضّطر مرغماً الى تركه، وظلّ قلبه معلقاً به.

بل الى هذه المناقب الخلقيّة، والمزايا العلمية والفضائل النفسيّة يعزى تعلّق الشباب به وحفظهم فضله العميم عليهم، معاهدين الله على أن يسيروا في حياتهم العامة على ضوء تعاليمه، ويسترشدوا في تصرّفاتهم الخاصة محامده ومباديه.

وبعد فأرجو أن يكون في هذه الشهادة تفسير كاف لبعض ما أحسسنا به، نحن معاشر المقاصديين من حرقة الألم بالفجيعة، تنزل في لبنان والعروبة والعلم والفضيلة.

ولعلّ في ذلك مشاركة من لدنا لأهله وذويه وعارفي فضله، في شعورهم بعظم المصاب به.

أما انت ففي ذمّة الله، وفي جوار الأبرار من الصالحين والمصلحين، ورفقة الرسل والنبيّين، ممّن عاشوا عاملين مخلصين وماتوا معلّمين ومربين.

وأمّا انتم أيّها المفجوعون مثلنا، فالله أسأل لكم أن يلهمكم الصبر والسلوان وأن تذكروا الآية الكريمة:
« وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنّا لله وإنّ اليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون.»
صدق الله العظيم.

ابراهيم عبدالعال:

المُواطِن

للأستاذ تقي الدين الصلح

لو كان ابراهيم عبدالعال رجلاً عادياً في الرجال، لألزمنا الواقع أن نقصّر الكلام على شخص وهب الحياة فعاش وشغل عدداً من نفوس الأصدقاء. فلمّا سلب الحياة سلبت النفوس كائناً يؤلمها فراقه ويحزنها غيابه فهي تفتقد في الحاجة من كان يلبّيها، وفي الجمع من كان يؤنسه، وفي الفراغ من كان يملأه.

ولكن ابراهيم كان من أولئك الرجال الذين برزوا من صفوف العاديين ليقفوا في صفّ الأفذاذ النادرين الذين تتحوّل حياتهم من كيان شخص الى كيان فكرة، ومن وجود خاص الى وجود عام.

مثلٍ ابراهيم يضيق به الكلام شخصاً خاصاً لعظم ما كان فكرة ووجوداً عاماً.

منذ أن التمعت، هنا على الشاطىء، خيوط النور الأوّل في يقظة الشرق، واسم لبنان مقترن بقضيّة العلم.
على السبق في مضماره، أقام لبنان حجّته، وبنى قوّته، ونشر سمعته، ونزل مكانه.

وعلى الجهد الضخم في مجالاته، تركّزت نهضة لبنان سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، بل اعتمدت الى حدّ كبير النهضة العربيّة الحديثة.

كان العلم حتى عصر ابراهيم عبدالعال معرفة شاملة وعامة. وكان رجل العلم بوجه الإجمال لغوياً وأدبياً ومؤرّخاً وفلكياً وكيماوياً وحكيماً في الطب ومشاركاً في بعض الأحيان في الفكاهة والتّندّر.

ولئن بدا المزج غريباً في عين هذا الزمان، فإنّه لا ينقص من قدر ذلك الطراز من أهل العلم، ولا من فضلهم. فحسبهم شرفاً أنّهم شقّوا الطريق، وكانوا الموقظين للبنان وأمّة العرب.

أمّا ابراهيم فهو، بعد انطواء عصر أولئك الروّاد، تلبية جديّة لدعوة الزمن الذي نعيشه به، بابراهيم، يحمل العلم الى لبنان معناه الأجدّ، ومقاييسه الصارمة، ومستوياته المرتفعة، وقوّته الجبّارة.

ومعه، مع ابراهيم، يبدأ لبنان بأن ينتمي انتماءً صادقاً الى عصر أخذ الإنسان فيه بناصيّة أسرار الطبيعة، عصر استيلاد القوّة الجبّارة، واخضاعها لإرادة الإنسان، وتطويعها لغاياته، عصر انتقال الفتوح من بقاع الأرض الى كواكب الفلك.

إنّ وطننا الصغير ما يزال بعيداً عن أن يكون عضواً فعّالاً في ندوة العلم، وانتماؤه للعصر الذي هو لم يبلغ بعد مرتبة النسب الوثيق.

ولكن بلداً فيه ابراهيم عبدالعال وأمثال ابراهيم عبدالعال هو بلد قد عرف الاتجاه الصحيح، وشرع يخطو في طريق التقدّم العقلي المادي الحديث. وهو لن يتخلّ عن البريق المشرق عليه من آفاق العلم التي لا نهاية لها.

لقد أدرك ابراهيم عبدالعال، بحسّه الوطني وبصيرته النافذة، ان وطنه لن يكون في مستوى الأوطان الاّ اذا كان ابناؤه في مستوى أبناء تلك الأوطان.

فألزم نفسه في أن يكون ذلك المواطن الذي اذا قيس بأرقى المواطنين في أرقى الأوطان لم يقصر دونه ولم يتأخّر عنه.
رفض عبدالعال المراتب المتوسّطة التي رضي بها العلم والمتعلّمون في بلده، وطلب لنفسه أن يكون رجل اختصاص، لا على الصعيد الوطني المحدود، كما كان الشأن في محيطه، بل على الصعيد العالمي الواسع.

الطبيب، والمهندس، والقانوني، والمؤرّخ، والكيماوي، والأديب، والرسّام، والموسيقي، والشاعر، كلّ هؤلاء في نظر ابراهيم لا يكونون مستحقّين لأسمائهم، أكفّاء لرسالتهم، ما لم يبلغوا في عقولهم مراتب تخوّلهم أن يحملوا تلك الأسماء ويضطلعوا بتلك الرسالات في أرقى البلدان.

فالطبيب في لبنان مطلوب منه أن يكون طبيباً في العالم، وكذلك المهندس أو القانوني أو المؤرّخ أو الكيماوي أو الأديب أو الرسّام أو الموسيقي مطلوب منه ذلك القادر على تشريف لقبه وفنّه في كل مكان.

إنّ هذه العقليّة التي كانت جديدة في وطن عبدالعال يوم خرج عبدالعال الى الحياة، والتي ما تزال جديدة حتّى يومنا، لم تجد خيراً من ابراهيم ممثلاً لها، ورسولاً.

ليس المواطن البار من كان في وطنه محترماً للقانون وفيّاً للواجب مكتفياً بحقوقه.

ان المواطن البار من نهض يلبّي في وطنه حاجة يراها، فهو يبذل في سبيلها ما يستطيع.

ولقد أدرك ابراهيم الحاجة في لبنان وفي كلّ بلد عربي الى دخول مرحلة جديدة في عالم العلم، تعطي وطنه أسباب اللحاق السريع بالعصر، وتمنحه مقوّمات البقاء وكرامة البقاء، فكانت حياته كلّها إيماناً بهذه الحاجة وسعياً الى توفيرها ودعوة الى نشرها.
وفي غد، عندما يمسح العلم بيده البّارة وجه الحياة في لبنان وأرض العرب، فتنطلق الإمكانات وتنبعث القوى وتبرز المواهب،
في غد، عندما ينبت الزرع وتعلو السنابل، سيقدّر كلٌ مواطن ذلك المواطن العظيم الذي جعل من فكره نواةً ومن دمه سقيا!

ابراهيم عبدالعال:

المفكّر

للشيخ موريس الجميّل

مرّ في أرضنا، كالتيّار الزاخر، يجرف معه القلوب والدموع، واندفع في بحر الأبديّة بينا هو في أزخم قواه ونشاطاته، وبلاده في أمسّ الحاجة الى علمه وإمكاناته، هو الذي أحبّ كل حفنة من أرض لبنان، وعني بكلّ قطرة من ينابيع لبنان.

طالما رأيناه يجول في أنحاء الجبل متحرّياً عن ينبوع أو مقتفياً أثر طبقة مائيّة تخللت التربة أو الصخر، فتقوده أبحاثه الى أودية ومرتفعات، فيقف خاشعاً مفكّراً ليستهدي الى سرّ جريان المياه، فيلحق بها، ويستنبطها ليغني بها الأرض الموات والشفاه العطشى، شعاره أبداً الآية الكريمة: « وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ.»

ومن خلال التطوّر الإقتصادي، كم رأيناه ينظر بقلق المفكّر الى طاقات الطبيعة والإنسان في لبنان ليجيب بعد درس وتأمّل على سؤال كثيراً ما استغرق تفكيره واهتمامه: « هل بإمكان هذا البلد الذي عاش حتّى اليوم بفضل عقول أبنائه أن يستمر على هذا الوضع أم يقتضي النظر في تدابير جديدة تتناسب مع التطوّر الجديد في الشرق الاوسط ؟ »

وكان يضنيه أن يرى المشاريع ترتجل في بلادنا والمخططات الضخمة الجديرة بعناية الدولة كدولة، تنهار أمام السياسات الصغيرة نتيجة لعدم الإستقرار الإداري وفقدان الفكرة الواعية الموجهة المستمرّة فيدعو الى إيجاد الفكرة الرابطة، الى تعيين الروح التي يجب أن تسود سياسة الدولة، فتصف الأغراض العامة التي يحسن الإتّجاه نحوها وتبيّن الطرق العمليّة التي تحقق الوصول اليها.

أجل، إنّ الذين أتيح لهم، مثلي، التعرّف عن قرب الى نشاط إبراهيم عبدالعال، يدركون، و لا شك، أنّ لبنان خسر بفقده ليس مواطناً عزيزاً ولا إدارياً ممتازاً ولا مهندساً أستاذاً وحسب، بل، فوق كلّ هذا، مفكّراً ألمعيّاً يعرف كيف يلحظ المعطيات الخارجيّة بنظرة خاطفة، وكيف يسبر غور الأمور بثاقب بصيرته، وكيف يدقّق في مشكلاتها وعقدها على ضوء العلم والوثائق والإحصاءات، لينعكف بعدها على ذاته فيتأمّل وينظر بعيداً وبعيداً جدّاً في مجالات الخير والحقّ والجمال.

وقد يتأتى له أن يعيد الكرّة أكثر من مرّة لكن لا يخرج من عمله الفكري الشاق الاّ وهو من الموضوع في الصميم، يرى التصاميم تتواضح أمامه بسهولة، والمشاريع تستقيم جبّارة، فيعرضها، في اقتراحات راسخة المعالم، على الدولة التي كرّس زهرة حياته لخدمتها، أو يعطيها محاضرات للجمهور بأسخى معاني العطاء.

ذلك أنّه، شأن المفكّر الأصيل، يأبى الاعتزال في برج من العاج، بل يتحسس نفسه أنّه واحد من الناس، له رسالته وعليه مسؤوليّات لا يقدر، ولا سيّما في أيّام عاشها، على الاكتفاء بحفنة من الماء يغسل بها يديه- كما

غسلها بيلاطس البنطي- ويترك السواد الأعظم من مواطنيه في عطش، قائلاً: «أنا بريء من دم هذا الصديق!»

وشأن المفكّر الرياضي كان يؤمن بأنّ الفكر العامل هو في العمل المفكّر. ولم يرض الاّ حياة الناس ساحات لأعماله. فكان يحرر الأرقام والقاييس والأشكال من جفافها ورموزها ليأخذ جوهرها، أيّ روحها، ويسخّره في سبيل حلّ عقد الحياة العمليّة. وكم كان يقرن الفكر بالإرادة الحازمة مهما تراكمت الصعوبات! وكم كان يكتنفه التفاؤل كلّ مرة أقدم على معالجة أحوال البلاد! فيقلع عن عادة المهتمّين في الشؤون العامة الذين يصبغونها بألوان سوداء قاتمة قبل أخذهم في معالجتها، ليقول هو مع سينيك الفيلسوف:

«ليس لأنّ الأمور صعبة لا نجابهها
بل لأننا لا نجابهها هي صعبة.»

وكأنّي به كان يشعر أنّ حياته على الأرض ستكون قصيرة المدى وحاجات البلاد ملحّة ليردد دائماً: «علينا أن نفكّر بسعة ونحقق بسرعة.»

وشأن المفكّر المؤمن كان يقول: إنّ العناية الإلهيّة التي حبت لبنان موارد طبيعيّة عظيمة لكفيلة بأن تسخّر طاقات إنسانيّة أعظم كامنة في عقول أبناء لبنان وسواعدهم لاستغلال ما يمكن من هذه الموارد.

وكما أنّ ابراهيم عبدالعال لم يكن أنانيّاً في تفكيره كذلك لم يكن انكماشيّاً أيضاً. فينظر الى الأوضاع اللبنانيّة كجزء من كلّ في المجموعة العربيّة فينادي بالتعاون الأوسع والأوفر شمولاً كوسيلة فعّالة للمحافظة على التخصص الإقليمي في كلّ من البلدان العربيّة من حيث تمركز الأعمال

في الأنحاء الملائمة لها كليّاً أو جزئياً. لأنّ زوال التخصص الإقليمي في رأيه يؤدّي الى انخفاض الدخل الوطني ويحمل على السعي للإكتفاء الذاتي وانكماش كلّ بلد عن الآخر بينما تزداد فاعليّة العمل والرساميل إذا تيسّرت لها الأسواق الواسعة وحريّة الاتنقّال.

وكان يقلق ابراهيم عبدالعال أن يرى الإقتصاد متنكّراً للإنسان في لبنان. ويقلقه أكثر، ذلك الجفاء بين الإنسان والطبيعة التي لم تستغلّ ثرواتها الضخمة الدفينة استغلالاً فنياً وافياً. فكان عليه أن يجابه، بروح إنسانية كبيرة، طبيعة عنيدة ليعرف كيف يذلّلها ويستخرج منها ليس فقط ما يسدّ أشدّ حاجات الإنسان ضرورة، بل ما يبدّل وجه الحياة ويضفي عليها أنسانيّة تستريح اليها نفس الإنسان.

وبعد أن أصبح الإتصال بين البشر كخطف البرق كان يرى بواسع تفكيره أن كلّ مشكلة فرديّة أصبحت اليوم مشكلة قوميّة وكلّ مشكلة قوميّة أصبحت مشكلة دوليّة. فلا بدّ، والحالة هذه، من تعاون وثيق الى حدّ أنّنا لا نقدر أن نعي اقتصاداً في نطاق جماعة محدودة، أو فئات منعم عليها، أو جيرة فرضت علينا بحكم الواقع الجغرافي، بل في مدى الإنسانيّة جمعاء من أجل خير كلّ إنسان ورفاهيّته.

هذا هو ابراهيم عبدالعال في خطّه الفكري الصاعد: باحث ينشد ضالته ولو في الصين حتّى غدا مجموعة معلومات، وعركته تجارب الحياة فكان ذلك العالم المفكّر. وبعد، ذلك المفكّر الحكيم، العاقل، الزاهد لا عن قرف بل عن رجاحة في التفكير وعزّة في النفس، وسموّ في النظر الى الناس والأشياء.
فخلافاً لذويّ العلم الناقص، لا يتردد عن الإشادة بمواهب أصحاب

الكفاءة وتشجيع المغمورين منهم وإن لم يكن هو ليلقى في حياته الاّ الإجحاف والإمتهان.

وخلافاً لذوي القيم الفارغة، كان متواضعاً ببساطة واعية، يرحّب بالمناقشة ويحترم رأي الغير ولا يرى مذلّة في أن يتراجع عن رأيه الشخصي أمام الرأي الأفضل أيّاً كانت طائفة صاحبه ولأيّ جنسيّة انتسب.

ذلك أنّه، شأن المفكّر الحكيم، كانت تغمر قلبه المحبّة، وكان يؤمن بأنّ لا استقرار لأوضاع لبنان ولا حلول لمعضلاته الاّ بالعلم المشبّع بالمحبّة.

من أجل هذا كان موضع ثقة الدولة، والضمير الذي يركن اليه عند تضارب الحلول،

ومن أجل هذا كان يطمئنّ الناس عندما تضحي قضيّتهم بين يديه،

ومن أجل هذا كان المستشار الفنّي لأكثر من مؤسسة وطنيّة أو أجنبيّة،

ومن أجل هذا سوف تبقى، على مدى الأجيال، للمخططات التي تبلورت في مناخات تفكيره، روحانيّاتها الخاصة، روحانيّة ابراهيم عبدالعال، مفكّر من لبنان.